

التاريخ في سبر أبطال

محمد شريف باشا

كان شريف في عصره رجلاً اجتمعت فيه الرجال
وكانت موافقه توحى البطولة وتخلق الأبطال

للأستاذ محمود الحفيف

←————→

كان في استقالة شريف معنى الغضب ، ولكنه لم يكن غضب
فرد لشخصه فحسب وإلا لما كان له ما كان من خطر ، كان غضب
رجل لشخصه ولقوميته معاً أمام لجنة من الأجانب تريد أن تظهر
بمظور السيادة ، وتحرص أشد الحرص على ذلك المظهر ، ولذلك
كان ذلك الغضب ثورة ؛ وما لبثت تلك الثورة أن بثت في كل
نفس من نفوس الأحرار ثورة مثلها ، وبذلك تهبأت البلاد لأن
تثبت أمام الأجانب وجودها ، واغتدى شريف بما فعل رجلاها
ورأس أبطالها

ورب قائل يقول وماذا كان في ذلك الموقف من معاني البطولة ؟
هذا رجل اعتزل منصبه فكيف يكون الاعتماد عن الميدان رجولة ؟
ولكن الذين يعلمون مبلغ ما وصل إليه نفوذ الأجانب يومئذ ،
ومبلغ ما منى به المصريون من خور ، وما عرف عنهم من الحرص
على المناصب الحكومية ، يدركون ما ينطوى عليه موقف شريف
من عزة وتضحية . هذا إلى ما سبق الاستقالة من نجد للجنة
وسلطانها . ولو أن الخديو آزر شريف يومئذ لما ترك منصبه تاركاً
اللجنة بذلك في أخرج المواقف ممدناً في عصيانه وترفعه ... ولكن
الخديو على جلال قدره طلب إلى اللجنة في لهجة تشبه الرجاء أن
تكتفي من شريف أن يرد على أسئلتها كتابة . ولما رفضت اللجنة
ذلك لم يرد الخديو عليها بعمل أو بقول يكون فيه معنى التأييد لرجله
والاستنكار لفعل الأجانب ، ومعنى ذلك أنه لم يبق أمام شريف
إلا أن يتخذ من استقالته مظهراً من مظاهر الاحتجاج على تدخل
الأجانب في شؤون البلاد ، فكان ذلك المظهر أول نذر الثورة ...
أخذت لجنة التحقيق العامة تدرس الحالة . ولقد جعلت
اللجنة هدفها بطبيعة الحال العمل الصالح للدائنين ، ولذلك فلم
تأل جهداً في أن ترجع بكل المساوي، إلى الخديو وحكومة
الخديو متناسية ما فعله الدائنون من مخاطراتهم بأموالهم ابتداء
الريح الوفير وما جره جشعهم على البلاد من دمار ، وما انطوى

عليه مكرهم من غدر وبهتان وزور واختلاس .

تعامت اللجنة عما كان يقاسيه الفلاحون يومئذ من شقاء ،
ولم تراخ في تقريرها بؤس أولئك الذين أنقلمهم الضرائب وهدم
الجوع ، أولئك المساكين الذين كانوا كثيراً ما يفرون من أرضهم
لكثرة ما كان يطلب منهم ، أولئك الذين غمرهم في سنة من تلك
السنين السود سيل جارف لم يكن أقل هولاً عليهم من سيل
الضرائب ، ألا وهو فيضان النهر على قراهم وأراضيهم ، أولئك
الذين أحاط بهم المرابون والأمراض معاً وباتوا يتمنون الموت
من قبل أن يلقوه

وتدافلت اللجنة عن أولئك الأجانب الذين كانوا يهرون
بضائعهم وينجون بها من الجمارك ثم لا يدفعون عنها شيئاً داخل
البلاد في ظل تلك الامتيازات المشؤومة التي كانت من أكبر
المساوي التي منيت بها مصر والتي قل أن يجد المؤرخ مثيلاً لها
فيما كانت تتضمنه من الجور ، وما كانت تقوم عليه من الباطل
والبهتان ؛ وكذلك توافقت اللجنة عن أولئك الأجانب الذين ترايد
عددهم في الحكومة المصرية، والذين كانوا يتقاضون الأجور العالية
جزءاً على ما انصفوا به من الكسل وقلة الروءة وجود العاطفة؛ بينما
كانت مرتبات الوطنيين لا تدفع لهم إلا في مشقة وعناء وهي من
الفلة بميث كانت تحفز الكثيرين إلى الاختلاس والتهاون في العمل .
واقترحت اللجنة في قرار تمهيدى أن يتنازل الخديو عن سلطته
المطلقة إلى وزراء مسؤولين ، وأن ينزل عن أملاكه في نظير
مرتب معين ، وكذلك تنزل أسرته عن أملاكها ... كل ذلك
دون أن تفكر اللجنة في أن يتنازل الدائنون عن شيء من ديونهم
وهي تعلم كيف تراكت تلك الديون وكيف ترايدت أرباحها حتى
وصلت إلى ما وصلت إليه

وقبل الخديو تأليف الوزارة السؤولة فاستدعى نوبار من أوربا
وعهد إليه تأليف وزارة يتضامن أعضاؤها في التبعة وتقوم بالحكم
في البلاد ، ونظر المصريون فإذا وزارة المسالية تسند إلي رجل
انجليزي ، وإذا وزارة الأشغال تسند إلى رجل فرنسي ، وهكذا
سيطر الأجانب على مصر سيطرة تامة !

ومن غريب أمر هذه الوزارة أنها بينما كانت تسمى « وزارة
مسؤولة » لم يكن لمجلس شورى النواب حق إسقاطها بل لم يكن
له حق محاسبتها ، ولم يك للخديو سلطان عليها ، ومع ذلك كانت

تلق بذلك اللقب ! فليت شعري كيف كانت مسؤولة ومن كان إليه يرجع الأمر يومئذ ؟
كان الوزيران الأجنبيان هما صاحبي السلطان الحقيقي في البلاد،

فلئن كانت ثمة مسؤولية على نوبار

ومن معه من الوزراء المصريين فأمام الأجانب كانت تلك المسؤولية، وعلى ذلك فن هذه الواجهة يصح تسمية تلك الوزارة بما سميت به، أما أن تعتبر وزارة مسؤولة كالوزارات التي يكون للشعوب حق محاسبتهما وإسقاطها من مناصبها فتلك سخرية من سخريات الأجانب كانت في ذاتها من أبلغ نكاليهم يومئذ بالبلاد وأهل البلاد

ولكن شريفًا كان عضواً في تلك الوزارة، أسندت إليه وزارة الحربية، وحل محله رياض في الداخلية . ولنا أن نسأل كيف قبل شريف أن يضم إلى تلك الوزارة؟ والذي نستطيع أن نستخلصه من حوادث ذلك العهد وملابساته أنه فعل ذلك على الأرجح لأن الخديو كان يرى فيه يومئذ الرجل الذي يستطيع بما أوتي من شجاعة وثقافة أن يراقب أعمال نوبار ومن معه من الأجانب، وفي هذا من النض من شخصه ما لم يكن يسمعه السكوت عليه

لا أدري لأية حكمة قضى الله على قادة العرب أن يختلفوا دائماً في الأسماء دون الأفعال ، وأن يدعوا الموضوعات وينصرفوا إلى الأشكال؟ ما هذه العصبية الجاهلية التي عجزت عن نحوها الحنيئة المؤلفة ، والمدنية المهذبة ، والثقافة المتحدة ، والآلام المشتركة ، والخطوب التي تكسكف النفوس الأثرية ، وتطرف العيون الرغبية ؟ !
هذه القضية المصرية لم يصعبها بالضعف والبطء والتأخر إلا تكالب الزعماء على الرياسة ، وإحاطهم الأهواء الحزبية في باب السياسة ، ووزنهم الأمور العامة بميزان المنفعة الخاصة ؛ فزهق الحق ، ونفق الزور ، واستخذى النطق ، وطاش الرأي الحصيف بين غفلة الشعب وأثرة القادة !
كذلك سياسة الأحزاب في سورية والعراق ، لم تخل يوماً من هذا النفاق والشقاق . وهذه قضية فلسطين يجتمع لحلها وفود الدول العربية ، وتتفق على أمرها الأحزاب الإنجليزية ، وتتحد في سبيلها الطوائف اليهودية ، ثم لا يختلف إلا أقطاب الرأي فيها ! وقد اشتد هذا الخلاف واحتد حتى أوشك أن يقطع أسباب الأمل ، وأن يحول بين المؤتمر وبين العمل !

حتى الأدب والثقافة ! لا بد أن يكون لها زعامة وخلافة ، ثم يختلفون في مقر هذا السلطان ، أفي مصر يكون أم في لبنان ؟ ... فهل فرغنا من الجد يا قوم حتى نشتمل بهذه الصنائر؟ أم عجنا عن استبطان الأمور فوقتنا عند الظواهر ؟

ابن عبد الملك

على أن شريفًا على رغم ثقة الخديو به وإثارة إياه بالمحبة كان يكره استبداد الخديو بالأمر بقدر كراهته لنفوذ الأجانب، وكان يضر ذلك في نفسه حتى يمين الفرصة كما سيظهر من أعماله عما قريب

إن هذا الحادث كان أول خطوة في الحركة العسكرية التي سوف تكبر حتى تكون الجانب العسكري في الثورة المرابية ، ذلك الجانب الذي سوف يفسد على الثورة مبادئها ويميل بها عن وجهتها

قلبي لنفسى ...

وسرعان ما دب الخلاف بين الخديو ووزرائه أو على الأصح بينه وبين نوبار والمعضون الأجبيين ، فلقد كان في الوزارة رجال غير شريف يدينون بالولاء لحاكم البلاد الأتلي ومن هؤلاء على مبارك ورياض ... وتزايد هذا الخلاف حتى أصبح اسماعيل ولاهم له إلا أن يتخلص من تلك الوزارة التي لم تترك لعن السلطة إلا اسمها

وسنحت له الفرصة في حادث مظاهرة الضباط ، فلن نفرأ من الضباط الذين استغنى عنهم عملاً بسياسة الاقتصاد قد تجمهموا أمام وزارة المالية واعتدوا على نوبار والمعضو الإنجليزي السير ريفرزولسن ، وكادوا يلحقون بهما الضرر البالغ لولا أن شخص الخديو بنفسه وفرق المظاهرين ... وأعلن اسماعيل على أثر ذلك أنه غير مسؤول عن شيء في البلاد مادام محروماً من السلطان ومن ثم رأى نوبار أنه لا قبل له بمواجهة الحال بعد ذلك فرفع إلى الخديو استقالته ، وبذلك تخلص الخديو وتخلصت البلاد من تلك الوزارة التي اعتاد الناس أن يسموها الوزارة الأوروبية وإنا لا نستطيع أن نمر بحادث الضباط هذا دون أن نشير إليه ولو في إيجاز ، فنقول

فصار للمعضون الأورويين حق إيقاف أى قرار لمجلس الوزراء لا يوافقان عليه؛ ومعنى ذلك أنهما صارا يحكمان البلاد حكما ديكتاتوريا لا يدع للخديو في مصر سلطة أو ظلها !

وأن لمجلس شورى النواب أن يخلو خطوة ما كان أعظمها من خطوة؛ نعى إلى المجلس فيما نعى إليه من أبناء الوزارة الأوروية أنها تأخر بالمجلس وتنوى التخلص منه فصمم الأعضاء ألا يشفروا وأن يظفروا في أما كنهم للنظر في شئون البلاد في تلك الآونة العصيبة ... ألسنا نرى في ذلك صورة مما حدث في فرنسا

في مستهل عهد ملكها لويس السادس عشر، حين اشتدت الضائقة المالية ورأى نواب الشعب وجوب العمل على وضع حد لسوء الحال؟ لقد أدت الظروف إلى أن يصبح مجلس شورى النواب تلك الهيئة التي لم يكن لها حول ولا قوة — هيئة محاسب الوزراء وتملك حق إقصائهم عن مناصبهم إذا ما تهاونوا في حقوق البلاد

لقد كان لشريف الفضل كل الفضل فيما وصل إليه المجلس من حقوق حتى ليمد شريف بذلك مؤسس الحركة الدستورية في مصر. كان المجلس في وزارة نوبا. قد أرسل إلى السير ريفرزولسن وزير المالية يدعوه ليحضر أمامه ليسأله عن بعض الأمور، فسوف

وباطل ولم يحضر أو يرسل إلى المجلس شيئا مما طلب المجلس أن يطلع عليه من المشروعات؛ وضاق المجلس بما فعل وزير المالية وأصبح يفسر عمله بأنه إهانة موجهة إلى الأمة في أشخاص نوابها وفي وزارة الأمير توفيق استصدر وزير الداخلية رياض باشا

أمرأ من الخديو إلى النواب بأن مدة مجلسهم قد انتهت فليهم أن ينفضوا؛ وذهب رياض يتلو على النواب هذا الأمر؛ وهنا وقف النواب وقفة جدرة أن تفخر بها مصر فيما تفخر به من مواقف البطولة، فلقد رفضوا أن يدعنوا، وهددوا رياضاً بما عساه أن يقع من الحوادث في البلاد تجاه سياسة الوزارة، وجعلوا تبعه ذلك

عليها .. ولكم نرى من أوجه الشبه بين موقف هذا المجلس ومجلس طبقات الأمة في فرنسا حين وقف فيه نواب العامة يتحدثون قرار الملك

أثر صيحة ميرابو المدوية التي نقلت تاريخ فرنسا من فصل إلى فصل ولكن النواب هنا لم يكونوا في الحقيقة يتحدثون الخديو، ولقد

كانوا يعلمون أنه يعطف على حركتهم ليتخلص بهم من تدخل الأجانب في شؤون مصر، ذلك التدخل الذي حرمه كل سلطة وإنما كان النواب يتحدثون الوزارة الأوروية ويريدون أن يأخذوا السبيل عليها

وكانت مطالب المجلس يومئذ تنحصر في المسألتين الدستورية والمالية، أما أولاهما فتتلخص في أن تكون الوزارة مسؤولة أمام

ويكون في النهاية سبب فشلها وتحريكها إلى كارثة تجرف البلاد إلى هوة بعيدة القرار .. ذلك الجانب الذي كان له سيرة شريف صلة وثيقة، فلنرى أن هؤلاء نظرف المرابين وشططهم لسار شريف بالبلاد سيراً كان يصل بها بلا شك إلى غاية لو أنها أتاحت لها لتغيرها تاريخها وأبحه وجهة غير التي سبق إليها

وكانت تولد بالبلاد يومئذ حركة وطنية قوية، حركة سوف تلتقي فيما بعد بالحركة العسكرية فيتألف من التيارين تلك الثورة التي تمتد كثير من المؤرخين تشويهها والتي أخطأ فهمها عدد منهم ليس بالقليل حتى تبينت آخر الأمر على حقيقتها ...

وكان لتلك الحركة الوليدة مركزان أولهما المركز الرسمي وهو مجلس شورى النواب، وثانيهما المركز الأهلى وهو بيت البكرى حيث كان يلتقى الأحرار من العلماء والنواب والأعيان .. وبهذين المركزين كان شريف دائم الاتصال لا يسهو ولا تفتر له همة

كان شريف دائم الصلة بالنواب إن جاز أن تسمى أعضاء المجلس على حالتهم هذه نواباً؛ وكان يعنى أن يتخذ منهم قوة يناوئ بها الأجانب ويحد من سلطان الخديو، ولن يتم ذلك فيما يرى إلا أن يكون الوزراء مسؤولين أمام هذا المجلس كما هو الحال في المجالس الأوروية التي تسير على القواعد الدستورية. ولقد بذل شريف جهداً محموداً في إنشاء هذا المجلس وظل يتعهد بنصحه ورعايته، وإنه ليأمل أن يتطور مع الزمن حتى يصبح هيئة لها مكانها في النظام الحكومى في مصر

وكان شريف يربح حركة هؤلاء الأحرار من الرجال الذين كانوا يجتمعون في بيت البكرى، وكان لا يفتأ ينصح لهم ويشير عليهم بما يعملون، وإن له بينهم لكافة تجعله مناط آمالهم وممقد رجائهم، وما أشبه تلك الظروف بظروف مصر غداة الهدنة التي انتهت بها الحرب العظمى يوم كان الرجال يجتمعون خفية يفكرون في مصير بلادهم ويتجهون بأفكارهم وإن لم يقصدوا إلى رجل بعينه يحسون أنه سيفدو بما قريب زعيم ثورتهم

سقطت الوزارة الأوروية ولكنها ألفت من جديد برئاسة الأمير توفيق، فلقد رفضت اتصالاً إنجلترا وفرنسا أن يرأس اسماعيل نفسه الوزارة كما طلب. ولقد أرادت الدولتان على لسان تفصليهما أن يدخل نوبار الوزارة الجديدة فرفض الخديو وصمم على الرفض ورأت الدولتان مبلغ حرص اسماعيل على إبعاد نوبار، فاشترطتا أنهما قبلان ذلك إذا أعطى المعضون الأورويين في الوزارة حق «القيتو» على قرارات مجلس الوزراء، ورضى اسماعيل بذلك

أن تضاعف سرور البلاد بأن أسند إليه رئاسة الوزارة الوطنية،
وأصبح شريف زعيم الحركة الوطنية ورئيس وزارة الأمة فكان
بذلك في مصر صاحب الرياستين
(البقية في العدد القادم)
محمد الخفيف

المجلس بحيث يصبح هيئة لها مكانها الفعلي في حكومة البلاد ،
وأما الأخرى فؤداها أن يبحث المجلس المسألة المالية دون الأجنب
وأن يقرر في أمر الدين والضرائب ما تعلقه عليه مصالح البلاد .
وأصر النواب على تلك المبادئ فكانت حركتهم هذه حركة

كريم بالمؤليف للحلاقت
يتخذى !
ويقول !



- انه افضل كريم حلاقة الوجه . لأنه يرغى بمعدل ٣٠٠
- انه لا ينشف على الوجه بل يجعل الوجه طرياً ناعماً للحلاقة
- ان فقايقته تجعل الشعر ينصب فتر عليه الموي وتخلقه بسهولة
- انه هو الكريم الوحيد المركب من زيت الزيتون وزيت
النخيل . لذلك يشعر الانسان بلذة بعد انتهائه الحلاقة

قومية بأوسع معاني تلك الكلمة ؛ وكان يظهر
النواب أحرار البلاد من العلماء والأعيان والتجار ،
الذين لم تنقطع اجتماعاتهم في بيت البكري . وأخيراً
اتفقت كلمة الجميع على أن يتوجهوا إلى الخديو
بما عرف باسم اللائحة الوطنية ، وفيها يعترض
النواب على اقتراحات ريفرز ولسن التي كانت ترى
إلى إعلان إفلاس مصر ، ويقررون أن يرادوا
مصر تقي بدفع ديونها ؛ ويطلبون إلى الخديو
تقرير مبدأ مسؤولية الوزارة أمام المجلس وتأييد
وزارة وطنية تقوم مقام هذه الوزارة الأوروبية
التي ضاقت بسياستها البلاد ...

ولقد وضعت هذه اللائحة لجنة من النواب
تحت إشراف شريف ؛ فكانت هذه اللائحة
الخطيرة الكبرى حسنة إلى هذه البلاد كما كانت
أهم خطواته السياسية وأبدها في مجرى الحوار
أزراً ؛ ووقع على اللائحة ستون من أعضاء المجلس
ومثلهم من العلماء وفي مقدمتهم شيخ الأزهر
والبطيرك والحاخام ، كما وقع عليها عدد كبير من
الأعيان والتجار والموظفين والضباط ، ورفعت
بمد ذلك إلى الخديو فرأى أن قد حان الوقت ليوجه
إلى النفوذ الأجنبي ضربة قوية ، فالبلاد من ورائه
تؤيده وتشد أزره، ولذلك لم يتردد في الموافقة على
اللائحة، وسرعان ما هزمت فعلته البلاد هزيمة قوية،
هزيمة الفرح بانتصار الحركة الوطنية والأمل
في مستقبل تحطم فيه البلاد أغلالها وتتم فيه
بالراحة والرخاء

واستقلت وزارة توفيق ، فأنجحت الأبصار
إلى شريف واتفقت عليه القلوب والأهواء، فالت